الفصل الثاني

الإمبراطورية الفارسية الأخمينية

الدولة الأخمينية هي أول دولة توحد إيران تحت حكمها. وقد امتد حكمها من 550-330 ق.م. وقبل ظهور هذه الدولة، كانت في الإقليم الغربي دولة قوية هي دولة الميديين، وهي دولة آرية خضع لحكمها الفرس، وهم أيضاً من الجنس الآري.

والميديون، الذين ذكرهم شلمانصر الثالث لأول مرة بين أعداء آشور في نقش يرجع إلى سنة 837 ق.م، تمكنوا بعد قرنين من قلب الإمبراطورية الآشورية وتدمير عاصمتها نينوى (612 ق.م). قدم الميديون من شواطئ بحر قزوين إلى غرب آسيا قبل الميلاد بنحو ألف عام. ويشيد (الزند - أبستاق)، وهو كتاب الفرس المقدس، بذكر هذا الموطن القديم بوصفه جنة من الجنان. ووقعت بابل في يد قورش (الفارسي) عام 538 ق.م والربط بين الشعبين له دلالته، فهما اللذان ظهرا ليخلقا قوة جديدة في تاريخ العالم القديم وهي الإمبراطورية الفارسية. فقد تجمع الشعبان الميدي والفارسي في منطقة المراعي الشمالية عند بزوغ عصر ما قبل التاريخ، كجزء من غزوات (الرجل الآري) التي غمرت الهضبة الإيرانية وسهول الهند الشمالية، ومضت بضعة قرون كانوا فيها مغمورين في آشور وبابل، وشربوا خلالها جرعات من فيض الحضارات السامية العظيمة.

أقام الميديون في جزء من الهضبة، يقع جنوب غرب بحر قزوين، أي أذربيجان الحديثة وعاصمتها اكبتانا (همدان)، ومن بين الأساطير التي تملأ تاريخهم، تبزغ حقيقة جوهرية تؤكد أنهم كانوا أقرباء الفرس. وفي عام 550ق.م خلع قورش ملكهم من عرشه واستولى على إمبراطوريتهم. وظل الميديون يحتلون مكانة هامة في إمبراطورية قورش التي عرفت بإمبراطورية الميديين والفرس. ويعتبر قورش من أشهر شخصيات الشرق القديم، وتعزى شهرته إلى عظمته كفاتح ومصلح في آن معاً.

لم تعمر دولة الميديين طويلاً قبل قورش، ولم تستطع بالتالي أن تساهم في الحضارة بقسط كبير، إذا استثنينا ما قامت به من تمهيد للسبيل إلى ثقافة بلاد فارس. فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية، وحروفهم الهجائية التي تبلغ 36 حرفاً، وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون في الكتابة الرق والأقلام بألواح الطين، ويستخدمون في العمارة الأعمدة على نطاق واسع. وعنهم أخذوا قانونهم الأخلاقي،

الذي يوصيهم بالاقتصاد وحسن التدبير في وقت السلم، وبالشجاعة في زمن الحرب. ودين زرادشت وإلهيه: أهورا - مزدا وأهريمان، ونظام الأسرة الأبوي وتعدد الزوجات. وقد نسي الميديون ما كانوا عليه من شظف العيش في موطنهم الجبلي الفقير، وأساليب حياتهم الصارمة نظراً لتدفق الثروة عليهم؛ بحيث لم يستطيعوا استخدامها. وبعد أن كان هؤلاء الرعاة البسطاء يجدون السرور في استخدام المركبات البدائية، أصبحوا يركبون عربات فاخرة باهظة ينتقلون فيها من وليمة إلى وليمة، حتى إذا حل الظلم محل العدالة، خرج قورش الشاب، وكان من البيت الميدي المالك، على طاغية اكباتانا، وابتهج الميديون بانتصاره وارتضوه ملكاً عليهم، فأسس الأسرة الأخمينية، أسرة (الملوك العظام)، التي حكمت بلاد فارس في أزهى أيامها وأعظمها شهرة. ونظم قورش قوات ميديا وفارس الحربية، فجعل منها جيشاً قوياً، وضم إلى فارس كل البلاد التي تحت سلطان آشور وبابل وليديا وآسيا الصغرى، حتى أصبحت إمبراطورية الفرس أوسع المنظمات السياسية في العالم القديم قبل الدولة الرومانية، ومن أحسنها حكماً في جميع عصور التاريخ[1].

الأخمينيون: نظرة عامة

إذا كان الميديون قد أسسوا الملكية في إيران، فإن الفرس، قبائل الجنوب، هم الذين أقاموا صرح الإمبراطورية. وقد تزعم الأخمينيون الفرس، وبقوا يعترفون بتبعيتهم للميديين، إلى أن صعد قورش الثاني على العرش (559ق. م) في فارس ثم انتزع الحكم في إيران كلها. وهو لم يكتف بتوحيد العالم الإيراني، بل نهض للسيطرة على الشرق القديم كله، وهو العالم المتمدن المعروف آنذاك. وخلال ثلاثين عاماً من حكمه، وصلت قواته شرقاً إلى آسيا الوسطى، وغرباً إلى سواحل بحر إيجه؛ حيث أخضع مملكة ليديا وأسر ملكها لروزوس واستولى على بابل وأنزل نابونيد عن عرشه، وأطلق اليهود في بابل وأذن لهم بالعودة إلى فلسطين بعد السبي الذي استمر قرابة خمسين عاماً. واستطاع بتحركاته الواسعة هذه أن يغير وجه التاريخ، إلى أن قتل وهو في طريقه إلى شمال الهند وحوض البنجاب.

كان قورش وخلفاؤه الذين تعاقبوا على عرش الإمبراطورية الأخمينية ملوكاً محاربين ومعماريين بنائين. استطاعوا دون خبرات تاريخية كبيرة أن ينشؤوا إمبراطورية عظمى، وضع لها أول نظام سياسي شامل، جمع تحت إدارته المركزية شعوباً عديدة مختلفة الأعراق واللغات والعقائد. وقد ورثت هذه الدولة الشاملة ما انتهى إليها من موروث الشعوب والدول المغلوبة وحضاراتها العريقة. أخذت عن آشور فكرة الدولة العالمية وحكم العالم، وعن بابل خبرتها الإدارية.

1- د. نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، ج 1، مطبعة الكمال، دمشق 1965، ص 284-285.

وأضحت المنطقة الممتدة من أطراف الهند إلى البحر المتوسط لأول مرة في التاريخ سوقاً تجارية مشتركة، ففتحت الطرق البرية والبحرية ونظمت المواصلات ووجدت النقود، وضرب الدينار الذهبي وعليه صورة الملك، والدرهم الفضي لدفع الضرائب للجنود، ولشراء ضمائر الموالين والمؤيدين من رجال الإمبراطورية وزعمائها. واجتمعت للدولة ثروات ضخمة من الضرائب والغرامات والأموال كانت تصب في خزائن الملك حتى بلغت مئات الأطنان من الفضة والذهب. واعتمدت وحدات رسمية للمقاييس والأوزان اقتبست من الوحدات البابلية، وشجعت البيوتان التجارية والصرافة. وضبط الأمن بصورة لم تعهدها دول الشرق القديم من قبل. وعرفت معظم بلاد الإمبراطورية شكلاً من الوحدة الثقافية عندما ارتفعت اللغة الآرامية، وهي اللغة الأكثر انتشاراً في بلاد الرافدين وسورية، فوق لغات الأقوام وألسنتهم، لتصبح اللغة الرسمية للإدارة في الولايات الغربية من الإمبراطورية، ولغة عامة للتجارة بين السند ووادي النيل، بالإضافة إلى دورها الرفيع في الأدب.

وقد استطاع الملوك الأخمينيون أن ينشؤوا، من جهود شعوب عريقة في الحضارة كالفينيقيين والمصريين والبابليين واليونانيين، حضارة جديدة وفناً إمبراطورياً يتبدى في آثار القصور التي شيدت في عواصم الإمبراطورية برسبوليس (اصطخر) وبازر كادس وسوسة وفي موقع نقش رستم (المقبرة الملكية)[1].

وقد ترك الحكم الفارسي للشعوب المغلوبة في الدول القديمة استقلالاً واسعاً في إدارة شؤونها وفي ممارسة العبادات. وقسمت الدولة إلى ثلاث وعشرين ولاية، يمثل الملك فيها ثلاثة موظفين كبار: نائب الملك، ويدعى بساتراب، وهو مسؤول عن النظام وجمع الضرائب وحفظ الأمن، وحاكم الولاية، وضابط يقود الثكنة العسكرية. وكان المفتشون، عيون الملك وآذانه، يأتون للمراقبة والتفتيش مزودين بصلاحيات خاصة ومطلقة بمرافقة قوة عسكرية خاصة. وبوسع هؤلاء المفتشين عزل الساتراب ومعاقبته بالموت.

وقد مارس داريوس الأول الكبير دور ملك العالم، وأحاط نفسه بمجلس ضم رجالاً من فارس وبابل ومصر واليونان، وطور نظام البريد المعروف منذ أيام الفراعنة وملوك آشور وبابل. وربط ما تقرب مساحته من خمسة ملايين كم² بإدارة إمبراطورية واحدة على رأسها الملك والطبقة الأرستقراطية المحيطة به.

ورغم أن أساليب الملوك في قمع الحركات المناوئة لحكمهم لم تكن لتختلف في فارس عما كانت عليه في الدول القديمة كلها، فإن أسساً جديدة وضعت لإقامة (سلم فارسي) ساد المنطقة قرنين، لم تشهد من قبل مثيلاً له، فعمَّ الهدوء، وتنامت الثروات وازدهرت التجارة البرية والبحرية، إلى أن تطور الصراع في حوض

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 79-78.

البحر المتوسط وتدهورت الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية، وذلك مع مجيء الإسكندر المقدوني فاتحاً مدمراً أركان نظام الشرق لسياسي والاقتصادي، فهدم العمران القائم واستعبد الناس الأحرار حين كانت مجالس المدن اليونانية تتحدث عن الديمقراطية والحرية، وسقطت المدن العريقة مثل صور وغزة بعد مقاومة ضارية استمرت إلى النهاية[1].

قوروش تأسيس الإمبراطورية:

يعد قورش مؤسس الإمبراطورية الفارسية أعظم وأشهر فاتح عسكري معروف في تاريخ الشرق القديم كله. فخلال عقد من الزمن (550-539) استطاع أن يصل بقواته إلى الهند شرقاً، وأن يكتسح بقواته دول غربي آسية، وأن يقوض أركان أعظم عواصم الشرق الأدنى القديم: بابل ومنفيس وطيبة، باسطاً سيطرته على آسيا الصغرى حتى أطراف العالم الهيليني، واضعاً بذلك أسس أوسع إمبراطورية عرفها الشرق حتى ذلك الحين.

هكذا حلت القوى الجديدة الناهضة محل القوى القديمة المتداعية التي تسرب إلى أجسادها النخر بفعل السنين والأزمات الخطيرة خلال التطورات والتقلبات المتلاحقة. فالحثيون تركوا فراغاً في آسيا الصغرى، لم تستطع أية قوة محلية أخرى أن تملأه، وحلت مئات الإمارات والممالك فيما بين طوروس وسواحل بحر إيجه، كان أبرزها ليدية. أما آشور فقد انهارت بعد صراع دام متواصل خلال قرون على كل الجهات، وانكمشت مصر ضمن حدودها، وتخلت عن دورها في الشام لدول حوض الرافدين: آشور أولاً، ثم بابل فيما بعد.

عرف قورش كيف يتفهم التقاليد المحلية لكل منطقة من مناطق الإمبراطورية، وكيف يعمل على التوفيق بين أوضاعها وبين متطلبات الدور الجديد. واستطاع ببراعة أن يقدم نفسه بوصفه الوارث الشرعي للعروش المحلية التي فقدها العواهل المخفقون والمغلوبون على أمرهم[2].

قدم قورش نفسه للبابليين على أنه محرر لا فاتح وأنه الوارث الشرعي لعرش بابل، ولتأكيد هذا الأمر سمى نفسه: ملك بابل، وعظم إله البابليين. وكان انتصاره على بابل، بالطبع، انتصاراً على ممتلكاتها الأخرى وبخاصة سوريا، فجاءه ملوك فينيقيا يعلنون ولاءهم ويضعون سفنهم تحت تصرفه، وكان لهم أسطول يقابل أسطول المدن اليونانية مجتمعة. وفي أول عام لحكمه في بابل، أصدر أمراً بالسماح لليهود بالعودة إلى بيت المقدس وإعادة بناء معبدهم فيها، كما أعاد إليهم الأواني الذهبية والفضية التي كان البابليون قد غنموها منهم، فخرج أربعون ألفاً من اليهود من بابل إلى بيت المقدس.

1- المرجع السابق، ص 79-80.
2- نفس المرجع، ص 82.

ولهذا يطلق اليهود في التاريخ على قورش لقب «الراعي الصالح». وكانت سياسته هذه، إلى جانب ما قد يكون فيها من اتجاه إنساني، سياسة بعيدة النظر، تهدف إلى تمهيد الطريق لغزو مصر. فليس من شك في أنه كان ينظر إلى فلسطين على أنها مرحلة من أهم المراحل في الطريق للوصول إلى مصر.

وقامت حوادث في شرق الإمبراطورية، اضطرت قورش إلى أن يعود إلى محاربة البدو، فاتجه إلى الشرق بعد أن وضع ابنه قمبيز على رأس حملة لمهاجمة مصر. وقد قتل قورش في الحرب، وكانت وفاته في عام 530 أو 529ق.م. وبهذا نرى أن هذا الفاتح العظيم لم يمت إلا وقد أصبح غرب آسيا بأسرة في قبضته. وفي عام 525 ق.م ،أي بعد أربع سنوات من وفاة قورش، غزا قمبيز أرض مصر، فانتصر بذلك على آخر دولة قوية، وأصبحت حدود الإمبراطورية الفارسية تضم الشرق المتحضر كله من دلتا النيل جنوباً إلى بحر إيجه شمالاً، متضمنة بلاد شرق البحر المتوسط، ممتدة صوب الشرق إلى الهند. وكل هذا لم يستغرق سوى خمسة وعشرين عاماً بعد هزيمة الملك الميدي[1].

قمبيز (529-521):

هو ابن قورش، وقد اندفع بفتوحاته إلى مدى أبعد مما وصل إليه أبوه، فاحتل مصر وتوغل في النوبة والحبشة (أثيوبيا). وقد كان لهذه الأحداث مضمون تاريخي كبير. فبعد انهيار الركن المكين، الذي مثل الاستقلال الإقليمي في المشرق القديم أفضل تمثيل في ظل حكم الفراعنة المتعاقبين خلال ألفين وخمسمائة عام، أضحى بإمكان الشرق القديم تحقيق وحدة سياسية شاملة[2].

مات قمبيز متأثراً بجراح أحدثها بنفسه، وليس من المعروف إن كان أقدم على الانتحار أو أنه جرح نفسه بعد أن فقد وعيه أثناء حالة من حالات الصرع التي كانت تنتابه.

دارا (521-485):

مات قمبيز وهو في طريق عودته من مصر، بعد أن تلقى خبراً عن ثورة اندلعت ضده في فارس. فقد أعلن الكاهن جوماثا أنه أخ للملك، ونادى بنفسه ملكاً وريثاً للعرش بعد قورش. عندها نهض دارا، الذي ينحدر من فرع آخر من الأسرة الأخمينية، وتمكن من القبض على غاصب العرش جوماثا وقتله، وأعلن نفسه بدوره ملكاً على البلاد.

على أن دارا، بوصفه رجل دولة من الطراز الأول، كان قادراً بلا لبس ولا تردد بين المثل الأعلى المنشود ومقتضيات مصلحة الدولة. فبعد أن استولى

1- د. محمد عبد السلام كفافي. في أدب الفرس وحضارتهم، حل 132-133.
2- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 84.

على العرش كان عليه أن يقمع الثورات العديدة التي نشبت في أنحاء الإمبراطورية، فتمكن من استرداد إمبراطورية سلفه قمبيز، ونجح في العمل على توسيعها باتجاه الهند شرقاً وأوربا غرباً. ولكنه رغم النجاح المؤقت الذي أحرزه على ضفاف الدانوب، اضطر إلى الانسحاب وإلى تقليص تحركه، وتلقى جيشه ضربة مؤثرة من أثينا في معركة ماراثون الشهيرة عام (490ق.م)، وهي إحدى المواقع الفاصلة في التاريخ كله.

وتعدُّ معركة ماراثون أهم فشل صادفه دارا، ولكنه على كل حال لا يعني أن الإمبراطورية الفارسية قد ضعفت، ولكنها كانت في ذلك الوقت في أوج قوتها، والجيش الذي هزم في ماراثون جيش صغير لا يقاس بما كانت تستطيع الإمبراطورية أن تجنده في ذلك الوقت[1].

وقد وصل التنظيم السياسي للدولة إلى ذروته في زمن دارا. فالملك يقف على رأس الدولة مزوداً بسلطة مطلقة ووراثية، ويساعده مجلس النبلاء، لكن الملك لم يكن مؤلهاً كما هو الشأن في حضارات أخرى كمصر الفرعونية، لكنه يزعم بأنه يتلقى مساعدة الآلهة. وهو يدير المملكة بمساعدة ولاة، وهم حكام كبار يلقب الواحد منهم «بساتراب» يعينهم الملك، وهم ينوبون عنه ويمثلونه في إدارة الولاية. ولكل من هذه الولايات خصوصيتها وعاداتها وتقاليدها المرعية. ويساعد الولاة حكام محليون للمناطق وقادة للثكنات والحاميات وكتاب ملكيون. وهناك المفتشون الذين يطلعون الملك على أحوال المملكة ويزودون الملك بتقارير عنه. وقد يتمتعون أحياناً بصلاحيات استثنائية ومطلقة.

أما موازنة الدولة فكانت تنظم بشكل دقيق، وهي أساس الحياة الاقتصادية التي تطورت بصورة لم تشهدها من قبل، وذلك بسبب اتساع السوق التجارية في ليدية، وعممها في كل أنحاء الإمبراطورية. ونظمت شبكة الطرق والبريد وأهمها الطرق الملكية من سوسة إلى ساردیس بطول 2400 كم، وكانت طرقاً للتجارة ولتحركات الجيوش بين جنوبي إيران وساحل بحر إيجه[2].

وسأترك الآن سرد حوادث التاريخ للتحدث عن مظاهر الحضارة الإيرانية أيام ازدهار الدولة الأخمينية.

1- محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 134.

2- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 88.

سورية تحت الحكم الفارسي

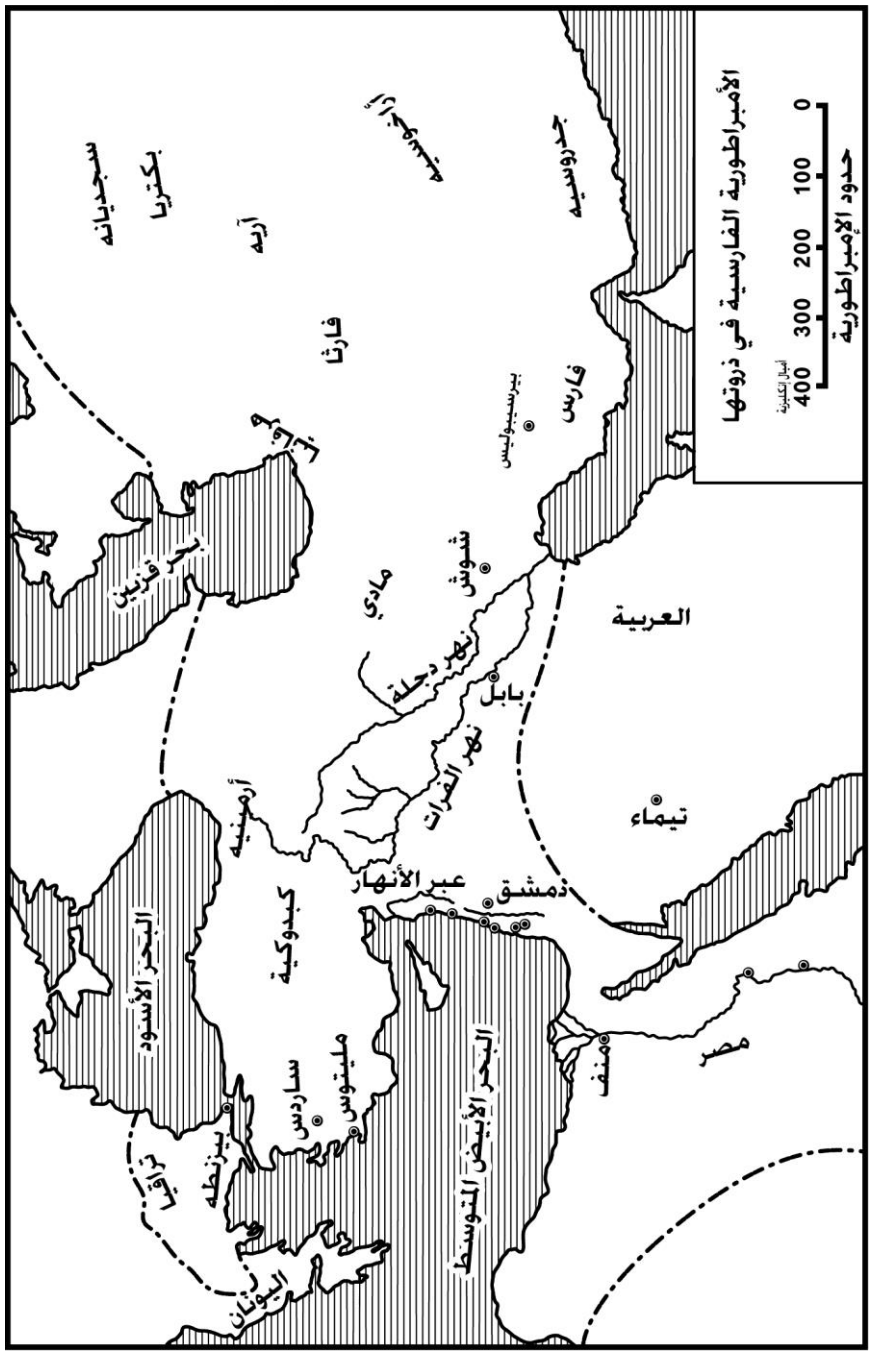

مظاهر الحضارة في العصر الأخميني

الحياة السياسية والإدارية:

كانت الإمبراطورية الفارسية أوسع الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ في ذلك العصر، وكان عمادها القوة والتوسع والفتح. ولم يكتف الفرس بالحرب والقتل، بل إنهم، بعد أن وطدوا حكمهم في البلاد التي احتلوها، اهتموا بوضع أساس إداري ثابت للمحافظة على إمبراطوريتهم ودعم كيانها واستمرارها. ورغم أن حياة فارس كانت مزعزعة الكيان كجزيرة حاكمة وسط بحر واسع خاضع لسلطانها على غير أساس طبيعي، فإن النظام الإداري فيها كان من أقوى الأنظمة. ويأتي على رأسه الملك المحارب، وهو لقب يدل على صبغة الملكية الفارسية العسكرية. وكان للملك، من الوجهة النظرية، سلطة مطلقة، وقلما يجرؤ أحد على انتقاده أو لومه ما دام الرأي العام ضعيفاً عاجزاً عجزاً مصدره الحيطة والحذر.

ولم يكن ملوك الفرس المتأخرون يملكون ويحكمون، كما كان قورش ودارا الأول، إذ كانوا يعهدون بدفة الحكم إلى الأشراف أو إلى خصيان القصور، وينهمكون هم في الحب أو لعب النرد أو الصيد. وكان من حق الملك أن يختار خلفه من أبنائه، ولكن وراثة العرش كانت تقرر في العادة بالاغتيال أو الثورة. غير أن سلطة الملك كانت مقيدة من الوجهة العملية بعادات وتقاليد كثيرة وبقوة الأشراف الأعيان. وكان هؤلاء الواسطة بين الشعب والعرش، وكان كثير منهم يحضرون إلى القصر ويؤلفون مجلساً يولي الملك مشورته غالباً أعظم رعايته. وكان تنظيم مناطق الإمبراطورية الشاسعة يعتمد على مجلس الملك لا على طاغية غير مسؤول.

واتصف الملوك غالباً بالتسامح مع عادات وأديان الشعوب الخاضعة لهم، ووجد لدى الإمبراطورية الفارسية أول نظام إداري معروف. وكان الوالي (ستراب أو المرزبان) يعتبر حلقة اتصال هامة في نظامها الحكومي، والولاة عادة من النبلاء أو الأمراء، يعينون غالباً لمدة الحياة[1].

الولايات:

تمكن دارا من توطيد النظام والأمن بفضل الطرق المعبدة، التي عني بإنشائها، وبفضل مراكز البريد التي أوجدها بين عواصم الأقاليم، وبفضل النظام

1- نور الدين حاطوم ورفاقه: موجز تاريخ الحضارة، ص 286-287.

الدقيق الخاص بالمفتشين. انقسمت الإمبراطورية إلى ولايات، كان عددها يتفاوت في فترات مختلفة من حكم دارا بين العشرين والثماني والعشرين. أما ولاية فارس بالذات فقد كانت هي الوحيدة الخارجة على هذا التقسيم، لأنها كانت موضع رعاية خاصة بوصفها موطن السلالة الحاكمة.

وكانت السلطتان المدنية والعسكرية في هذه الولايات منفصلتين. وقد أقام في كل ولاية ثلاثة عمال مستقلين وكانت تتبع كل منهم إدارة حكومية قائمة بذاتها. وفي الولايات غير ذات الشأن كان الحكام ينتخبون من بين أفراد الطبقة الموسرة أو الفقيرة من الشعوب المحكومة ومن الفرس على السواء. وكانت سلطات الوالي في الظروف العادية مدنية بحتة، لا سيما السلطتان المالية والقضائية، ويدخل في سلطة الوالي القضائية أن يحكم بالإعدام أو يهب الحياة. ولم يكن الوالي يتولى قيادة القوات الحربية في أقاليمه إلا في حالات استثنائية، وكثيراً ما كانت سياسة الحكومة المركزية تؤلب القائد الحربي على الوالي. وكان الأمين في داخل الولاية هو ثالث أصحاب المناصب، الذين كانوا على اتصال مباشر بالملك. وكانت مهمته أن يراقب أعمال الوالي والقائد، وأن يقدم تقارير عنها إلى الحكومة المركزية. وزيادة في الاحتياط كان للملك إدارة للمفتشين وللمخابرات السرية تعرف باسم (عيون الملك وآذانه) يفاجئ موظفوها الولايات ليفحصوا سجلاتها وشؤونها الإدارية والمالية. وكان الوالي أحياناً يعزل بلا محاكمة، وأحياناً يتخلص منه بهدوء بالسم مثلاً.

ولم يكن موظفو الولايات يتناولون رواتبهم من الملك، بل يتناولونها من أهل الولاية التي يحكمونها، بحيث تكفي لمعيشتهم في القصور وفي الصيد والقنص وبين الحريم. وكان على كل وال أن يبعث إلى الملك في كل عام قدراً معلوماً من المال والبضائع ضريبة مقررة على ولايته.

والوالي هو الذي يقوم بجمع الضرائب، نقداً أو عيناً. وكانت هذه الضرائب تفرض على جميع الولايات ولا يعفى منها إلا ولاية فارس مسقط رأس أسرة الأخمينيين، وتجمع الضرائب بدقة في الإمبراطورية كلها تحت إشراف الملك. وفي المقابل كانت الحكومة تؤدي خدمات جليلة لسكانها، كنشر السلم، باستثناء الحرب اليونانية، والقضاء على النهب والقرصنة، واستخدام نظام صك العملة الذي يسر رواج التجارة، والقيام بمشروعات عامة كإتمام القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر، وإرسال بعثات الاستكشاف وما إليها تدعيماً للقوة البحرية[1].

القانون والقضاء:

كان القانون في دولة فارس هو إرادة الملك وقوة الجيش. ولا تجدي التقاليد والأعراف، إلا إذا كانت مستمدة من أمر ملكي سابق، ذلك أن الفرس كانوا يفخرون بأن قوانينهم لا مبدل لها، وأن المرسوم الملكي لا ينقض أبداً، لأن قرارات

1- المرجع السابق، ص 288.

الملك وأحكامه، وإنما يوحيها إليه الإله أهورامزدا نفسه. أي أن القانون مستمد من الإرادة الإلهية، والخروج على القانون يعد خروجاً على إرادة الإله، فالقضاء الأعلى يتركز في يد الملك، ولكنه يعهد عادة بهذا العمل إلى أحد العلماء الشيوخ. ثم تأتي من بعده المحكمة العليا المؤلفة من سبعة قضاة، ومن تحتها محاكم محلية منتشرة في أنحاء المملكة، والكهنة هم واضعو القوانين، وظلوا زمناً طويلاً ينظرون في المظالم، ثم كان ينظر فيها في العهود المتأخرة رجال بل ونساء من غير رجال الدين ونسائه. وكانت الكفالة تقبل من المتهم في جميع القضايا إذا لم تكن خطيرة، وإجراءات المحاكم منتظمة، تأمر بمنح المكافآت أحياناً كما تأمر بتوقيع العقوبات، وتأخذ في عين الاعتبار ما للمتهم من حسنات وما أداه من خدمات. وكان يحدد زمن معين كأجل نهائي تنتهي فيه كل قضية للحيلولة دون إطالة الإجراءات القضائية، ويعرضون على الخصوم أن يختاروا لهم حكماً يحاول فض خلافاتهم بالطرق السلمية. وبمرور الزمن وتعدد السوابق القانونية وتعقد القوانين، نشأت طائفة (المتحدثين في القانون) يفسرون القانون ويتابعون معهم قضاياهم. وكان يطلب إلى المتقاضين أن يقسموا الإيمان، وأحياناً كانوا يلجأون إلى الحكم الإلهي فتقضي الآلهة للمتهم بأن تنجيه من النار أو الغرق إن كان بريئاً، أو تقضي عليه بهما إن كان مذنباً. والرشوة عقوبتها الإعدام. وقد لجأ قمبيز لضمان نزاهة القضاة إلى سلخ جلد القاضي الظالم حياً، واستخدام جلده لتنجيد مقاعد القضاة.

وتتراوح عقوبة الجرائم بين الجلد بالسوط أو الوسم بالنار وتشويه الأعضاء أو بترها أو سمل العين أو السجن أو الإعدام. وقد تستبدل الغرامة بالجلد باحتساب مبلغ للجلدة الواحدة، ولا يحق لأي إنسان حتى للملك نفسه أن يحكم على إنسان بالقتل أو هتك العرض أو القتل أو الاعتداء على حرمة القصر الملكي، والمذنب يعدم إما بإرغامه على تجرع السم أو صلبه أو شنقه أو قتله بوسائل أخرى قاسية همجية[1].

الجيش:

كان الجيش العماد الأهم لسلطان الملك والحكومة الإمبراطورية، ذلك أن الإمبراطوريات إنما تبقى وتستمر ما دامت محتفظة بقدرتها على نشر النظام وتوطيد الأمن. والجندية كانت تفرض على كل رجل صحيح الجسم بين سن الخامسة عشرة والخمسين كلما أعلنت الحرب. وحدث مرة أن طلب والد ثلاثة أبناء أن يعفى واحد منهم من الخدمة العسكرية، فما كان من الملك إلا أمر بقتلهم هم الثلاثة. وكان الجند يسيرون إلى ساحات الحرب وسط دوي الموسيقى وهتاف الجماهير التي تجاوزت سن التجنيد. وكانت أهم فرق الجيش فرقة الحرس الملكي

1- المرجع السابق، ص 289.

المؤلفة من ألفين من الفرسان، ومثلهم من المشاة النبالة من الأشراف، وكانت مهمتهم حراسة الملك. وللملك أن يعين قائد القوات الحربية. وكان الجيش العامل كله يتألف من الفرس والميديين، وكان يؤخذ من القوات الدائمة معظم الحاميات القائمة في النقط العسكرية الهامة في الإمبراطورية والتي ترهب من تسول له نفسه الخروج عليها. أما القوات الحربية الأخرى فكانت تجند من جميع الشعوب الخاضعة لسلطان الفرس، وكانت كل فرقة تتكلم بلغتها وتقاتل بأسلحتها وتتبع أساليبها الحربية الخاصة. والراجح أن التجنيد العسكري، الذي كانت تقضي به الحروب الكبيرة، كان أثقل الأعباء في نظر الشعوب المحكومة، أو أنه كان أبغضها إلى نفوسها. ولم يكن عتاد هذه الفرق الحربية وأتباعها أقل اختلافاً من أصولها: فهناك القسي والسهام، والسيوف والحراب، والخناجر والرماح، والمقاليع والمدى، والتروس والخوذ، والمجنات من الجلد، والزرد، وكانوا يركبون الجياد والفيلة، ويصحبهم المنادون والكتبة والخصيان والسراري، ومعهم العربات التي سلح كل جزء من عجلاتها بمناجل الصلب الكبيرة. وهذه الجحافل التي بلغت عدتها في حملة كسير يكس 1.800.000 مقاتل لم تتألف منها قط وحدة كاملة. ولذا فإن أول بادرة من بوادر الهزيمة كانت تحيلها إلى جموع من الغوغاء عديمة النظام. وكانت تهزم أعداءها بقوة عددها، وبمقدرتها على استيعاب قتلاها، فإذا ما لاقاها جيش حسن التنظيم يتكلم أفراده لغة واحدة ويسودهم نظام واحد، حاقت بها الهزيمة. وهذا هو السر فيما أصاب الفرس عند ماراثون وبلاتية. على أن بسالة الجندي الفارسي أمر لا يتطرق إليه الشك، وعندما غلبه المكدوني لم يكن ذلك راجعاً إلى بسالة المكدوني، بل إلى أن المكدوني كان خيراً منه تسليحاً[1].

الحياة الاقتصادية:

لم تعمل الغزوات البربرية ولا استعمال الحديد على تغيير بناء المجتمع والنظام الاقتصادي الذي قام منذ عام 2000ق.م تغييراً مستمراً وحاسماً، فالزعماء العسكريون كانوا عادة يغتصبون عروش صغار الملوك ويقتبسون الأنظمة الإدارية الموجودة، إلا أنهم كانوا يملؤون الوظائف العليا من حاشيتهم. ولقد نجح الفرس في ذلك. ومن حيث الإنتاج الأولي، وجد أن نظام الفلاحين المستعبدين، الذين يمارسون زراعة معاشية وينتمون إلى عائلة مالك كبير، هو نظام يناسب جامع الضرائب الحديث بقدر ما كان يناسب جامع الضرائب القديم. والفاتحون، وخاصة الفرس، كانوا يحلون محل طبقة الأشراف القديمة كأسياد لهذه الأملاك. وهكذا أصبحوا أرستقراطية (تحكم عبيد الأرض)، ونسوا تماماً الأنظمة الاشتراكية لملكية الأرض التي كانت تناسب وضعهم البربري قريب العهد.

1- المرجع السابق، ص 290.

حققت إمبراطورية دارا الفارسية الهدف الاقتصادي للاستعمار الأكادي الذي رمى إليه سرجون. فضمن حدودها كان يمكن الحصول على جميع المواد اللازمة للصناعة وحتى على أدوات الترف التي كان يتطلبها النبلاء، وكانت النتيجة أن اتسعت التجارة والصناعة، غير أن وضع الفلاحين لم يتغير إلا قليلاً. وقد ابتلعت خزينة الإمبراطورية مقداراً ضخماً من الفائض ولم تستخدمه لأجل الأعمال الإنتاجية، وإنما خزن بشكل سبائك ذهب أو فضة أو أنفق على الحروب والعبث. لذا فإن الزيادة المطلقة في الثروة الحقيقية لم تكن عظيمة، والمقدرة على الشراء كانت لا تزال مقيدة. حتى إذا تفكك النظام المركزي للإمبراطورية الفارسية، كما حدث في بلاد الرافدين ومصر، أصبحت الإمبراطورية الفارسية جزءاً من إمبراطورية الإسكندر الأوروبية يسودها نظام اقتصادي نشأ في اليونان.

الزراعة والصناعة:

مجدت الكتب الدينية الفارسية الأعمال الزراعية، وعدتها أهم أعمال الجنس البشري وأشرفها، وكان أهورامزدا يفضلها على غيرها من الأعمال. وكانت بعض الأراضي يزرعها ملاكها المزارعون، وكان هؤلاء الملاك في بعض الأحيان يؤلفون جماعات زراعية تعاونية مكونة من عدة أسر، لتقوم مجتمعة بزراعة مساحات واسعة من الأراضي. والبعض يمتلكه الأشراف الإقطاعيون ويزرعه مستأجرون نظير جزء من غلته، وبعضها الآخر يزرعه الأرقاء الأجانب (ولم يكونوا قط فرساً). وكانوا يستخدمون المحاريث الخشبية ذات الأطراف الحديدية التي تجرها الثيران. وكانوا يجرون الماء من الجبال إلى الحقول بطرق الري الصناعية. وكان الشعير والقمح أهم محاصيل الأرض وأهم عناصر الغذاء، ولكنهم كانوا يأكلون كثيراً من اللحم ويشربون كثيراً من الخمر. وقد أدخل الفرس زراعة البرسيم (الفصة) إلى بلاد البحر المتوسط عندما غزوا اليونان عام 490ق.م. وفي الوقت نفسه تعلم الفرس أنفسهم زراعة الأرز بعد فتحهم الهند[1].

كان الإنتاج الزراعي في الدولة يقوم على نظام الإقطاع؛ حيث يعمل بفلاحة الأرض عبيد يباعون ويشترون معها، وكذلك كان العبيد الذين يؤسرون في الحروب يستخدمون في فلاحة الأرض. وكانت الزراعة أهم موارد الثروة في الدولة. ولم يكن هناك فلاحون يملكون أرضاً إلا في إقليم فارس وهو موطن الدولة الحاكمة؛ حيث كان الناس يعفون من الضرائب أيضاً. وكانت الحاصلات الزراعية هي القمح والشعير والكروم والزيتون. وكذلك كانت تربى الماشية والأغنام والماعز ودواب النقل وهي الحمار والبغل والحصان. وكان النحل يربى ويستخدم العسل فيما يستخدم فيه السكر.

1- المرجع السابق، ص 205-206.

ازدهرت كذلك حرفة الصيد وكانت ذات أهمية عظيمة في العالم القديم، إذ أن كثيراً من الناس، سواء منهم الغني والفقير، كانوا يعيشون على صيد السمك، وكانت مصائد الخليج العربي ودجلة والفرات تصدر السمك المملح أو المجفف. وقد تم القيام بكثير من الأعمال العامة التي تزيد الإنتاج، وكان من أهم أعمال الملوك الأخمينيين حفر القنوات في باطن الأرض. وكان لهذه القنوات قيمة حيوية للنهضة الإيرانية، كما تم حفر قنوات في الأراضي التي تخلو من الماء مثل صحراء سوريا وبعض أقاليم آسيا الصغرى. ومن المؤكد أن الفرس قاموا بتجفيف المستنقعات، إذ أن هذا كان معروفاً لليونان في ذلك الوقت. وتحسنت الزراعة نتيجة لتلك الحروب التي قامت بين إيران وغيرها من الدول، فتم تبادل النباتات بين الأقاليم، وكان دارا يهتم بهذا الأمر.

وقد وصلنا خطاب كتبه دارا إلى أحد عماله، يشكره فيه على نقل أشجار الفاكهة من غرب الفرات وآسيا الصغرى وزراعتها في إيران. ولم يكن المقصود بهذا نفع إيران وحدها ولكن نفع الشعوب الأخرى في الدولة. فقد عرفنا أن الأخمينيين حاولوا زراعة نوع من الكروم التي يحبونها في دمشق، وقد أدخل الأخمينيون الفستق إلى حلب كما أنهم أدخلوا السمسم إلى مصر والأرز إلى العراق.

واستغل الفرس الغابات، فاستخدموا الأخشاب في المباني الملكية وبناء البيوت وصناعة الزوارق وعربات القتال وعربات النقل والآلات، وأدوات القتال. وكانت آسيا الصغرى وكريت وقبرص ولبنان والهند من أهم مراكز تجارة الأخشاب. وكان في الدولة كفايتها من الأخشاب والمعادن.

كانت الفضة والنحاس والحديد تستخرج من قبرص، والنحاس والفضة من آسيا الصغرى. وكانت هذه المعادن توجد أيضاً في فلسطين. وكان النحاس والحديد يستخرجان من لبنان وأعالي وادي دجلة والفرات. وكان الذهب والفضة يستخرجان من كرمان. وكانت سجستان معروفة بإنتاج القصدير، وجنوب القوقاز بالفضة والحديد وكذلك الساحل الجنوبي للبحر الأسود.

وكذلك بدأ العمل في المحاجر لتلبية حاجة الدولة إلى إنشاء المباني العظيمة. وبدأت الصناعة تزدهر في المدن، وكذلك استمرت الصناعات التي كان يقوم بها العبيد في داخل الإقطاعات الزراعية. وكانت صناعة الملابس والأحذية والأثاث من أكثر الصناعات رواجاً. وكان بعض هذا الأثاث فاخراً ليستخدمه الأغنياء.

وكذلك صنعت الأواني الذهبية والفضية والبرونزية التي كان يستخدمها الأغنياء أيضاً. وكانت النساء يتزين بالحلي، ويستخدمن وسائل التجميل المختلفة. وفي بيوت الفقراء كانت تستخدم الآنية الفخارية بدلاً من الآنية المعدنية[1].

1- د. عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 140-141.

التجارة والطرق التجارية:

وطدت الإمبراطورية الفارسية الأمن والسلام، وهما عماد الحياة الاقتصادية المزدهرة في بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر. وقد اهتم ملوك الفرس، وداريوس خاصة، بفتح الطرق وتعبيدها لأسباب اقتصادية وسياسية وحربية. ومن هذه الطرق تلك التي كانت تذهب من سوسه إلى برسبوليس وصولاً إلى البلاد الواقعة وراء نهر السند أو إلى باقتريان وإلى الطرق التي كانت تفضي إلى سوريا وآسيا الصغرى متبعة وادي الفرات. وكان طول إحدى هذه الطرق وهي الممتدة من سوسه إلى سرديس ألفاً وسبعمائة ميل مزودة بالمحطات والنزل اللائقة. والرحلة كانت تتم في مدة تسعين يوماً. وتسهيلات السفر هذه مكنت بعض اليونانيين المتعلمين مثل المؤرخ هيرودوت من زيارة بابل. وقد وضع الموظفون الآشوريون والفرس دليلاً للمسافرين يبين الطرق والمسافات.

وكان الفرس يعبرون الأنهار الكبيرة في قوارب، وكان في وسع مهندسيهم أن يقيموا على الفرات أو الدردنيل قناطر متينة تمر عليها الفيلة. وكانت ثمة طرق تصل فارس بالهند عبر ممرات الجبال في أفغانستان، وهذه الطرق قد أفادت في تنشيط التجارة وانتقال العادات والأفكار، وقد كثر التبادل التجاري وأثرت المدن الواقعة على الطرق التجارية الكبرى. وأمر داريوس بحفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر، وأهملها خلفاؤه فردمتها الرياح[1].

وبازدهار التجارة شاع الرخاء وارتفع تبعاً لذلك مستوى معيشة أهل إيران. وقد كان تأسس الإمبراطورية إيذاناً بدخول العالم مرحلة جديدة من مراحل الازدهار الاقتصادي، وقام التبادل التجاري بين بلدان لم تكن بينها تجارة من قبل مثل بابل واليونان.

وازدهرت صناعة السفن، فبنيت سفن تجوب البحار حمولتها بين 200-500 طن، أما السفن النهرية فكانت حمولتها بين 100 و 200طن.

وكانت الأجور والقروض وفوائد الأموال تؤدى بادئ الأمر سلعاً، وأكثر ما كانت تؤدى به الماشية والحبوب، ثم قام دارا بإصلاح مالي عظيم كان من شأنه أن حسن طريقة جباية الضرائب ونظمها وسهل التبادل التجاري في أنحاء دولته، وذلك بسكه العملة من الذهب والفضة وسميت (بالداريق). (وملوك الفرس هم أول من نقش على النقود صورهم بشكل رماة السهام).

وباختراع العملة، وجد التجار أداة ثابتة للتبادل، وربما أخذ دارا السكة من الصيارفة والتجار في مدن آسيا الآيونية، حوالي 700ق.م. ثم صقلها، حتى أن مجموعة (رماة السهام) التي صور على ظهرها الملك جاثياً على ركبتيه وممسكاً بقوسه، تعدُّ من أشهر قطع النقود في العالم القديم[2].

1- نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، ص 307.
2- المرجع السابق، ص 308.

الفنون:

إن امتداد الإمبراطورية الفارسية في ما وراء بلاد فارس الأصلية بعد عهد قورش وخلفائه، جعل الفرس على اتصال مباشر مع بابل، أحد مراكز الفن القديم، ومع مراكز المدنيات في واديي دجلة والفرات وآسيا الصغرى، وأخيراً مع اليونان وسوريا ومصر بعد فتوح قمبيز. ولا يرجع الفن في الحضارة الفارسية إلى تطور محلي أصيل، فالأخمينيون كانوا أقل ابتكاراً وأصالة في الفنون، ولكنهم بمهارة اقتبسوا وتبنوا فنون الشعوب الأخرى. وبما أنه لم تكن للفنون الفارسية جذور عميقة، فإنها خدمت بالأساس الأغراض الإمبراطورية، وما لبثت أن اختفت كما ظهرت مع الإمبراطورية.

إن أعظم مآثر الفن الأخميني، تتمثل في فنون العمارة والنحت والتزيين. ورغم أن الديانة الفارسية لا تتطلب بناء الهياكل الضخمة كغيرها، إلا أن ملوك فارس كانوا مولعين بتشييد القصور الضخمة والمقابر منذ أيام قورش وداريوس واكسيركسيس. ففي بازار غاد بقايا قصر قورش وقبره. وفي سوسه خرائب قصر داريوس الذي جدده حفيده من بعده. وفي برسيبوليس أنقاض قصر داريوس أيضاً. وأهم النماذج المعمارية الباقية هي السقف والقصور العظيمة في برسبوليس وسوسه، ويظهر أنها من وحي العمارة الآشورية والبابلية، فعنهما نقلوا فكرة العمد الضخمة التي تصل بها ممرات مدرجة تزينها أفاريز منقوشة. ومع ذلك فقد أدخل الفرس خصائص متميزة على ما نقلوه من الخارج.

فالقصور الملكية الهائلة وأبهاء الاستقبال لم تكن على شكل حصون أو معابد، بل كانت الأبهاء تبنى على شكل مظلة تتكون من سقف خفيف فوق مجموعة من الأعمدة؛ حيث يقابل الملك السفراء الأجانب وغيرهم من علية القوم. وفكرة الأعمدة المعمارية من هذا الطراز كانت مأخوذة من مصر بضخامة أقل وطول أكثر. إن طراز البناء المستعار من بابل هو الطراز نفسه الذي اتبع في بازار غاد وسوسه وبرسيبوليس من حيث إقامة العمائر المملوكية على ربوات اصطناعية يتم الصعود إليها عبر درج خارجية عظيمة. وربما أخذ الفرس هذا الطراز عن الدرج التي كانت توصل إلى زقورات، ولكن كان لها مع ذلك خصائص فريدة بها، منها كون الدرج سهلة المرتقى واسعة، يستطيع عشرة فرسان أن يصعدوها جنباً إلى جنب. ولا شك أن هذه التي كشفت في برسيبوليس، كانت مدخلاً بديعاً إلى المرتفع الفسيح الذي يعلو عن الأرض المجاورة له علواً يتراوح بين عشرين وخمسين قدماً، والذي يبلغ طوله ألف وخمسمائة قدم، وعرضه ألف قدم، والذي شيدت عليه القصور الملكية. وعند ملتقى الدرج الصاعدة من الجانبين يشاهد مدخل أمامي كبير، نصبت على جانبيه تماثيل ثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية آشورية. وإلى الجهة اليمنى، بعد هذا المدخل، توجد الردهة العظمى التي شيدها اكسيركسيس الأول، والتي كانت مساحتها مع غرف الانتظار المتصلة بها مائة ألف قدم مربعة.

ولا يزال ثلاثة عشر عموداً من الاثنين والسبعين التي كانت قائمة في قصر اكسيركسيس باقية إلى اليوم بين خربات القصر. وتعد هذه الأعمدة من الأعمال البشرية الممتازة، وهي أرفع من مثيلاتها في مصر أو اليونان، ويبلغ ارتفاعها أربعة وستين قدماً، وقد خط في جذوعها ستة وأربعون محزاً، وتشبه قواعدها أجراساً تغطيها أوراق أشجار مقلوبة، ومعظم تيجانها على شكل لفائف من الأزهار تكاد تشبه اللفائف (الآيونية) يعلوها صدرا ثورين أو حصانين مقرنين يتصل عنقاهما من الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف. ولا نشك في أن هذه العوارض كانت من الخشب، لأن أمثال هذه العمد المتباعدة سريعة العطب لا تقوى على تحمل الدعامات الحجرية الثقيلة. وكانت تيجان الأبواب وجوانب النوافذ من حجارة سوداء مزخرفة براقة كالأبنوس. أما الجدران فكانت من الآجر يغطيها القرميد المصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهاراً. وكانت العمد والفصوص والدرج من حجر الجير الجميل أو الرخام الأزرق الصلد.

وقد قلد الفرسُ الآشوريين في وضع تماثيل ضخمة عند أبواب القصور، وفي تزيين الجدران الخارجية بالنقوش الملونة. وبدلاً من أن يستعمل الفرس في مبانيهم القرميد، كما فعل البابليون والآشوريون مضطرين بحسب طبيعة بلادهم، استفادوا خاصة من وجود حجر المرو كما في بازار غاد وبرسبوليس.

ولعل قصور برسبوليس كانت من أجمل ما شاده الإنسان في العالم القديم والحديث على السواء.

أما قبور ملوك الفرس، فأجمل ما بقي منها إلى يومنا قبران محفوران في مكان عال وليس له درج، فكانوا ينصبون السلالم الخشبية للوصول إلى القبر ودفن الملك فيه.

فقبر قورش هو الآن ضريح حجري بسيط فيه تأثيرات إيونية، ويرتفع إلى ما يقرب من خمس وثلاثين قدماً فوق قاعدة مدرجة.

وقبر دارا منحوت في واجهة صخرة في الجبل، وقد نقش مدخله ليمثل لمن يراه واجهة قصر لا قبر. وأقيمت عند المدخل أربعة عمد دقيقة حول باب قليل الارتفاع. ومن فوق هذا الباب شخوص قائمة، كأنها فوق سقف، يمثل أهل البلاد الخاضعة للفرس، تحمل منصة رسم عليها الملك كأنه يعبد أهورامزدا والقمر. والفكرة التي أوحت بهذا الرسم وطريقة تنفيذها تسري منها روح البساطة والرقة الأرستقراطية[1].

النحت والتزيين:

عَنيَ الفرسُ بالنحت لتزيين قصورهم وقبورهم. فالأبواب والجدران المبنية من الحجر الكلسي كانت مزدانة بالنقوش البارزة البديعة، وبعضها يمثل الملك في

1- نفس المرجع، ص 297-298.

صراعه مع الوحوش الضارية، أو تمثله فوق عرشه وبين يديه أسرى الحروب، فضلاً عن الثيران الضخمة المجنحة ذات الوجوه البشرية التي تزين مداخل الأبواب. وفي كل ذلك يتضح تأثير بابل وآشور، سواء في اختيار المواضيع أو في معالجتها. إن الرمز الديني الواحد الذي يظهر في النحت الفارسي (أهورامزدا) في إطار مجنح، يشبه تماماً تمثيل نينوى للإله آشور الذي يعكس بدوره التأثير المصري حين يستعمل القرص المجنح.

ويبدو الرمز الإلهي فوق رأس الملك، شبيه للرمز الموجود في نينوى وبرسبوليس. أضف إلى ذلك أن الفرس أخذوا عن الآشوريين تلوين الآجر وطليه بالمينا، وأضافوا إليه النقوش البارزة فوقه. ولعل أبدع آثار هذه النقوش الملونة على الآجر هما الطنفان اللذان وجدا في سوسه ونقلا إلى متحف اللوفر، ويمثل أحدهما أسوداً والآخر رماة من الجيش الفارسي. ففي سوسه عثر المنقبون على «نقش الرماة» ولعلهم (المخلدون) الأمناء حراس الملك. ويبدو للناظر - على ما يقول ديورانت - أن هؤلاء الرماة ذوي الطلعة المهيبة قد تزينوا لحضور حفلة في القصر، وليسوا خارجين لقتال أو حرب. فجلاليبهم ذات ألوان زاهية، وشعورهم ولحاهم مجعدة، وهم يمسكون بأيديهم، في قوة وخيلاء، رماحهم رمز مناصبهم الرسمية. ولم تكن فنون النحت والتزيين والتصوير في فارس مستقلة، بل كانت تابعة لفن العمارة، كذلك كانت الكثرة الغالبة من التماثيل من صنع فنانين جيء بهم من آشور وبابل وبلاد اليونان. ففي الوجوه يمكن تحري التأثير اليوناني. فالبناؤون اليونانيون وغيرهم، لسبب أو لآخر، قد شقوا طريقهم إلى البلاط الفارسي، ولا يمكن التكهن بمدى العمل الذي كان يقوم به الأجانب أو الوطنيون.

ومهما يكن الأمر، فإن النحت كان مدنياً بأكمله، فالدين الفارسي لم يقدم مواضيع للمباني الدينية العظيمة. صحيح أن بيوت النار كانت متواجدة بكثرة، ولكنها ليست معابد للنار.

وتمثلَ الفن أيضاً لدى الفرس في صناعة أدوات الزينة مثل الأقداح والكؤوس والأحجار الكريمة وقطع السروج المرصعة بها، لأن اقتناءها كان محبباً عند شعب لمن يخرج من طور البداوة إلا منذ عهد قريب. وكانت الجواهر كثيرة لديهم من تيجان وأقراط، إلى خلاخيل وأحذية مذهبة، وحتى الرجال أنفسهم كانوا يتباهون بحليهم يزينون بها أعناقهم وآذانهم وأذرعهم. أما الفيروز فكانوا يستخرجونه من المناجم الفارسية، وكان هو المصدر الذي تصنع منها الطبقة الموسرة أختامها.

وأفضل نموذج للأحجار الكريمة المعروفة عند الأخمينيين كنز جيحون الشهير الموجود بالمتحف البريطاني، ويشتمل على مجموعة من القطع اليونانية الجميلة.

قيمة الفن الفارسي:

الفن الفارسي، شأن الفنون كلها تقريباً، عناصره مستعارة كلها من الخارج. ولنضرب مثلاً لذلك قبر قورش، فقد استعير شكله الخارجي من ليديا، وغمده الحجرية الرفيعة منقولة عن مثيلاتها من العمد الآشورية مع تحسين يسير. وبهو الأعمدة الضخمة والنقوش قليلة البروز مستوحاة من أبهاء مصر ونقوشها. وتيجان الأعمدة التي على صورة الحيوان مقتبسة من نينوى وبابل.

ويلاحظ أن فارس القديمة لم تترك ما يضاهي معابد مصر وبابل واليونان، والفن الفارسي عموماً لم يستوحِ من الدين إلا تمثيل أهورامزدا، وخلاف ذلك كان النحت لا صلة له بمواضيع الدين.

إن اختلاف فن العمارة الفارسي عن غيره من فنون العمارة، يرجع إلى اجتماع هذه العناصر سالفة الذكر كلها والمواءمة بينها، كما نجد في برسبوليس. وكان اليونان ينظرون إلى ما بلغه الفن الفارسي، ويندفعون إلى منافسته. والحق أنه لم يكن بين فني العمارة في برسبوليس وأثينا إلا خطوة واحدة. وبينما أوشكت الحضارات الشرقية أن تغرق في سبات عميق يدوم ألف عام، تتأهب بلاد اليونان للنهوض، بعد أن استودعها عالم الشرق تراثه القديم[1].

آداب الفرس وأخلاقهم:

كان الفرس يتحلون بالصراحة والكرم والمودة، ويراعون آداب المجالس، ولهم تقاليد وعادات لطيفة في المقابلات، وكلها تنم عن الاحترام والخضوع لمن تعلو منزلته بينهم. وإذا التقى الفارسي بمن هو أقل منه منزلة، قدَّمَ له خده ليقبله، فإذا قابل أحد العامة اكتفى باحناء رأسه.

وذكر هيرودوت بعض عادات وتقاليد لطيفة ترجع إلى الأيام التي كان يجوب فيها أجدادهم الآريون السهول الشمالية على ظهور الخيل، ومنها: أن الرضيع يبقى خمسة أعوام بعيداً عن أبيه لا يراه، وتتولى النساء تربيته، وأن الأبناء في سن الخامسة حتى سن العشرين يتعلمون ثلاثة أشياء فقط: ركوب الخيل، والصيد بالقوس، وقول الحق. أما القتال في المعركة، فكان يعدُّ أسمى صفات الرجل. وكان يليه في الأهمية بناء أسرة كبيرة من الأبناء، ثم يأتي بعد ذلك مثلهم الأعلى، وهو تكوين الجندي الباسل. إن استهجانهم للكذب وكرههم للاستدانة، يشيران إلى وجود قوانين صارمة في المدرسة، ويؤيدهما تصرف مشابه هو احتقارهم للتجارة، ولهم كثير من عادات الرجال الأقوياء الجسورين.

ولكن الفرس بدأوا، عند ظهور الإمبراطورية أيام هيرودوت، يتذوقون حياة الترف. ومع أنهم كانوا يحبون الطعام والشراب، لكنهم كانوا يتجنبون التخمة، ويتحاشون ممارسة شؤونهم الخاصة جهراً أمام الغير، لأنهم لم يكونوا أجلافاً.

1- المرجع السابق، ص 299-300.

وكانوا يعدون النظافة أكبر النعم، ويفرضون أشد العقوبات على من يتسببون في نشر الأمراض المعدية.

وكان عقاب من يرتكب جريمة الزنا واللواط «أن يقتلوا لأنهم أحق بالقتل من الأفاعي الزاحفة والذئاب العاوية»، ولم يكن القانون يشجع البنات على أن يبقين عذارى ولا العزاب على أن يبقوا بلا زواج، ولكنه كان يبيح التسري وتعدد الزوجات، ذلك لأن المجتمعات الحربية في حاجة ماسة إلى كثرة الأبناء. وكانت الأسرة لديهم أقوى النظم الاجتماعية. وكانوا يعظمون الثور لما له من قدرة على الإخصاب، كما كانوا يصلّون للبقرة ويقدمون إليها القربان.

وكانت للمرأة مكانة سامية أيام زرادشت، كما هي عادة القدماء، ثم انحطت مكانتها بعد عهد دارا؛ حيث لم يكن يسمح للنساء بالاختلاط بالرجال علناً، أو بالخروج من بيوتهن إلا في هوادج مسجفة. ولم تذكر النساء قط أو يرسمن في النقوش أو التماثيل العامة في البلاد القديمة.

وكان الرجال يطيلون لحاهم ويتركون شعر رؤوسهم ينساب في غدائر، ثم استبدلوا بها فيما بعد شعراً مستعاراً. ومع تزايد الثروة في عهد الإمبراطورية، أقبل الأهلون على استعمال أدوات التجميل رجالاً ونساءً، فاستعملوا الأدهان لتجميل الوجه، والأصباغ الملونة لدهن الجفون، لكي يزيدوا بذلك من سعة العينين وبريقهما في الظاهر. وقد برع الفرس في صنع الروائح العطرية[1].

وكان للفرس آراء في التربية والتعليم، فالوليد يبقى في حضانة أمه حتى السنة الخامسة من عمره، ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة، وفي هذه السن يدخل المدرسة. وكان التعليم يقصر في الغالب على أبناء الأغنياء، ويتولاه الكهنة عادة. فكان التلاميذ يجتمعون عادة في الهيكل أو في بيت الكاهن. وكانت الكتب المدرسية هي الأبستاق وشروحها. وتشمل مواد الدراسة الدين، والطب والقانون. أما طريقة الدرس، فكانت الحفظ عن ظهر قلب، وتكرار الفقرات الطويلة غيباً. وكان تعليم أبناء الطبقات الفقيرة يقتصر على ثلاثة أمور: ركوب الخيل، والرمي بالقوس، وقول الحق. وقد يمتد التعليم عند أبناء الأثرياء إلى السنة العشرين، أو الرابعة والعشرين، ومنهم من يعد إعداداً خاصاً لتولي المناصب العامة أو حكم الولايات. وكان التدريب الشاق على القتال والفروسية والفلاحة من مستلزمات الدراسة الشاقة. ويلاحظ أن الفرس كانوا متصوفين دائماً، متشككين فرديين، يهتمون بحقائق الحياة الظاهرة ويفيضون بهجة وحيوية. ولقد قام الحريم والحشد من الحصيان بدور كبير في حياة الإمبراطورية، ما أضعف قوة البلاط، وبالتالي غدا حكام الأخمينيين والمتأخرين مجرد ظل شاحب لأسلافهم العظام، سرعان ما سار حكمهم إلى الزوال، ومهد لبزوغ شمس الإسكندر[2].

1- نفس المرجع، ص 302-303.

2- نفس المرجع، ص 304.

الكتابة واللغة:

أصبحت الآرامية لغة الإمبراطورية الرسمية في أجزائها الغربية خاصة، أما الكتابة المسمارية القديمة، فقد استعملها الفرس، كما فعل الحثيون قبل ألف سنة، ولكن فهمها أخذ يصعب تدريجياً، حتى انقرضت في القرن الرابع قبل الميلاد. ثم استخدم الفرس الحروف الهجائية الآرامية لكتابة وثائقهم، وبسطوا مقاطع اللغة البابلية الثقيلة الصعبة، فأنقصوها من 300 رمز إلى 36 علامة، تبدلت تدريجياً من مقاطع إلى حروف، حتى صارت حروفاً هجائية مسمارية. ولم يخلِّف لنا الفرس من الآثار الأدبية، إلا كتبهم الدينية وقليلاً من رسائل الملك دارا ووثائقه.

وتكلم الفرس عدة لغات عبر تاريخهم الطويل. فكانت الفارسية القديمة لغة البلاط وأعيان البلاد في عهد دارا الأول، وهذه اللغة وثيقة الارتباط باللغة السنسكريتية، حتى ليبدو أنهما واللغة الإنكليزية واليونانية واللاتينية والألمانية لهجات من لغة أقدم عهداً. وتطورت اللغة الفارسية القديمة، وتفرعت إلى فرعين هما الزندية ـ لغة الزند ـ أبستاق، والبهلوية، وهي لغة هندية اشتقت منها اللغة الفارسية الحالية. ولكن اللغة الفارسية القديمة لم تنتشر في الإمبراطورية، ولم تصبح لغة الشعوب، بل كانت الآرامية هي السائدة، لأن ملوك الفرس كانوا يستخدمون السوريين في الدواوين والإدارات[1].

الديانة:

يرتبط الأدب الإيراني القديم بالمعتقدات الدينية. وأهم أثر مكتوب هو الأفستا، وهو كتاب ديني منسوب إلى زرادشت، ويسمى بالعربية الأبستاق في بعض الأحيان. والأفستا كتاب العلم والحكمة الذي يتألف من عدة أجزاء، ألفت في أزمنة مختلفة، وتناولت موضوعات مختلفة. ولئن ضاعت أجزاء من الكتاب، فإن ما بقي منه يسمح بالتعرف على الأبواب التي يتألف منها: التراتيل، الصلوات، الأحكام القانونية والطقسية. وأقدم هذه الأجزاء هو التراتيل الطقسية. وأقدم هذه الأجزاء هي التراتيل المنسوبة إلى زرادشت، وتعود على الأرجح إلى القرن السابع ق.م. وقد دُوِّنت بعد تناقلها شفهياً أجيالاً عديدة، وترتفع بأسلوبها إلى درجة أعلى من أسلوب الأجزاء الأخرى الرتيبة والركيكة والتي تم نسخها في القرن السادس. ولكن يلاحظ تطور في المضمون، وهذا التطور لم يكن ليتأثر دائماً بالزمن وبالوسط الثقافي، بل كان يتضمن أحياناً عودة إلى الماضي الوثني البعيد مثل عبادة ميترا (إله الشمس). ولذا يمكن القول إن الكتاب المقدس للديانة الفارسية (أفستا)، تكوَّن تاريخياً على مدى قرون، بصورة لم يعد في الإمكان تمييز الأصول، بسبب ما لحق بها من إضافات[2].

1- المرجع السابق، ص 305.

2- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس وحضاراتها، ص 91-92.

دين الفرس قبل زرادشت:

في فجر تاريخهم كان الآريون يقدسون قوى الطبيعة، وأهم ظواهرها كالنار والماء والهواء والرعد والشمس والقمر. وفي شرح الكتاب المقدس للديانة الفارسية القديمة، زند أفستا، ذِكر لأسطورة تتحدث عن الإنسان الأول وعن التوصل إلى الخلود عن طريق أكل لحم نصح أحد الأرباب بتناوله. وهي أسطورة تشبه في مغزاها موضوع نبتة الخلود في الآداب الميثولوجية الشرقية. لكن زرادشت يعلم أن الخلود لا يتوقف على أكل لحم ثور مقدس مثلاً، وإنما هو شيء معنوي يمنحه الإله أهورامزدا لمن يستحقه مقابل الفضيلة.

أما العناصر الكونية الأربعة المقدسة في الديانة الفارسية القديمة فهي: النار ممثلة بالكوكبين الشمس والقمر، والهواء، والماء، والتراب = الأرض، وهي العناصر التي اعتقد فلاسفة اليونان في القرن السادس أنها العناصر الأساسية في الكون.

ومن الطقوس القديمة للديانة الفارسية: التضحية. وكانت تقدم قديماً تضحيات بشرية استعيض عنها فيما بعد برموز وبدائل حيوانية: ثيران وكباش، ومن أهم الوصايا المتعلقة بحفظ الحياة، حماية بعض الحيوانات مثل كلب البحر والكلاب والقنافذ. وتعكس هذه التعاليم معتقدات شعبية متراكمة لها جذور تاريخية عميقة، تركت تأثيراً كبيراً في حياة العامة وسلوكهم اليومي وحتى في حياة طبقة الحكام والنبلاء. هذه بعض الأصول البعيدة للمعتقدات الدينية في الحضارة الفارسية. لكن الديانة في العصر الأخميني تبلورت حول عبادة أهورامزدا. وقد ارتبطت هذه العبادة باسم المصلح الديني زرادشت[1].

والخلاصة أن مصادرنا لا تعطينا صورة دقيقة للحياة الدينية في إيران قبل زمن زرادشت، ولا نستطيع أن نقطع بشيء أكثر من أن في دين زرادشت بقايا من الدين الآري القديم، تتمثل في تقديس الأجرام السماوية وتقديس عناصر الطبيعة، كما أن فيه دعوة حارة إلى نبذ السحر وعبادة الشياطين، وإلى ترك أمور أخرى مرتبطة بمعتقدات القوم قبل زمانه[2].

حياة زرادشت:

يعتبر زرادشت المؤسس الحقيقي للدين الفارسي القديم، فشخصيته وتعاليمه قد صبغت هذا الدين بصبغة قوية، ميزته عن غيره من الأديان الآرية. وقد أظهر بعض العلماء شكاً في وجود زرادشت، ولكن البحث أثبت أن زرادشت شخصية تاريخية، وأنه حكيم من أكبر الحكماء الذين ظهروا في الشرق القديم. وتمثله لنا الجاثات (أقدم قسم في كتاب الأفستا) رجلاً قوي الشخصية، يعلم ويعظ ويؤثر في

1- المرجع السابق، ص 92.

2- محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 195.

كل من يتصل به. أما الأجزاء المتأخرة من الأفستا، فتضفي عليه لوناً من التقديس والتعظيم، يكاد يخفي معالم شخصيته الحقيقية. وقد كانت الأفستا الأصلية تشتمل على فصل من حياة زرادشت، ولكن هذا الفصل قد فُقد، وقد حفظت أجزاء منه في الكتابات الدينية البهلوية. أما العصر الذي ظهر زرادشت فيه، فقد كان موضعاً لخلاف كثير. وقد توصل الأستاذ WEST إلى القول بأن زرادشت عاش بين عام 660 إلى عام 583ق.م. وقد لقي تحديده هذا قبولاً من أعلام الباحثين، ومنهم وليام جاكسون العالم الأمريكي الذي اهتم كثيراً بهذا الموضوع[1].

تحدثت الكتابات البهلوية عن العجائب التي ظهرت عند ولادة زرادشت، كما تحدثت عن محاولة السحرة قتله في طفولته، ولكن هذه المحاولات لم تنجح، وكبر الطفل. ونقرأ في الأفستا أن الطبيعة ابتهجت بمقدم زرادشت، فالأشجار تهتز والأنهار تنساب رقراقة عذبة. أما الشيطان وأتباعه من الجن، فقد فروا هاربين إلى باطن الأرض. وحين ولد زرادشت ضحك ولم يبك كما يفعل الأطفال ساعة يولدون.

ولما بلغ سن العشرين انقطع عن الناس وخلا بنفسه يتفكر ويتأمل، وحين بلغ الثلاثين نزل عليه الوحي وبدأت بذلك نبوته. وظل زرادشت يدعو الناس إلى دينه ويعرضه على الأمراء المختلفين فلا يؤمن به أحد. وبعد عشر سنوات من قيامه بالدعوة أفلح في أن يجتذب تابعاً واحداً. وكاد اليأس يدب في نفس زرادشت بسبب الإخفاق الكبير، لولا أن أهورامزدا أمره بأن يذهب إلى بلاط الملك كشتاسب ملك إيران في ذلك الوقت.

وهناك يقضي زرادشت عامين محاولاً إقناع هذا الملك، وبعد تعب شديد يفلح في إقناعه بعد أن يظهر أمامه بعض المعجزات. وهناك يؤمن به الملك وأسرته وحاشيته وأتباعه في حوالي عام 618ق.م. بناء على تاريخ ويست WEST، ويتلو ذلك انتشار الدين في إيران وفي جزء من توران (بلاد الترك التي كانت على الحدود الشرقية لإيران). ثم نسمع عن انتشار هذا الدين في أجزاء من الهند وآسيا الصغرى. ويظهر أن دين زرادشت قد انتشر عن طريق الفتح خارج إيران، فهناك روايات تنبئ بذلك، بل وتنبئ بأن زرادشت نفسه قد قتل في إحدى هذه الحروب الدينية، وهو في عمر السابعة والسبعين[2].

أصبح زرادشت شخصية أسطورية في التاريخ الفارسي القديم، ذلك أنه بعد أن شبَّ وترعرع، أحب الحكمة والصلاح واعتزل الناس، وآثر أن يعيش حياة متقشفة في برية الجبل، واختار الجبن وثمار الأرض طعاماً له. وأخفق الشيطان في إغوائه، وتجلى له أهورامزدا، ووضع بين يديه كتاب العلم والحكمة «أفستا» =

1- المرجع السابق، ص 196-197.

2- نفس المرجع، ص 197-198.

(الأبستاق عند المؤرخين العرب)[1]. وأمره أن يعظ الناس وأن يدعوهم إلى الإيمان به، ولكنه جوبه بمعارضة قوية وتعرض للاضطهاد.

ويتحدث زرادشت عن نفسه في هذه المرحلة قائلاً:

«إلى أية أرض أمضي؟ إلى أين المفر؟
لقد استبعدوني، وتركني أهلي وأنكرني أبناء عشيرتي وكبار قومي.
كيف أستطيع أن أرضيك يا أهورامزدا؟
أنا أعرف لماذا لن أفلح في ذلك!
لأن قطعاني قليلة وأنصاري قليلون!
إنني أدعو إليك أي أهورامزدا فاستجب دعائي.
امنحني العون كما يمنح الصديق صديقه»!

هكذا ولدت الزرادشتية، في عصر لا بد أن يكون أسبق من عصر داريوس الأول. أما نهاية زرادشت فهي أكثر غموضاً، إذ يُذكر أن ومض برق أحرقه وصعد إلى السماء.

ومن هنا يتضح لنا مدى ما يحيط بحياة زرادشت من ريبة وشكوك تجعل من الصعوبة بمكان تكوين صورة صادقة وصحيحة عن حياته وفكره وتعاليمه. ومهما يكن فإن الأمور التي تذهب إلى حد زرع الشك بحقيقة وجوده ليست مقبولة. أما الوسط الطبيعي الذي عاش فيه هذا المصلح فهو مروج ومراعي إيران الشرقية. وهي أقرب ما تكون إلى حوض السند وثقافة الهند الغنية.

لقد كان زرادشت شخصية قوية ومؤثرة في المجتمعات الإيرانية القديمة، وقد أدخل تعاليم أثرت في التربية والسلوك الاجتماعي لتلك المجتمعات زمناً طويلاً. وتدخل هذه التعاليم في نطاق تاريخ الأديان وفي تاريخ الحركات الفكرية والاجتماعية في العصور القديمة[2].

تعاليم الزرادشتية:

كان ثرا إله الشمس وأنيتا إلهة الخصب وماه إله القمر وزام إله الأرض، أكبر الآلهة في الدين السابق للدين الزرادشتي. واستنكر زرادشت ما رأى من هذه الآلهة البدائية، فثار على المجوس - وهم الكهنة الذين كانوا يصلون لتلك الآلهة ويقدمون لها القرابين، وأعلن أن إله العالم هو أهورا - مزدا إله النور والسماء. إن جوهر العقيدة التي بشر بها زرادشت هي التوحيد، فهي لا تقر إلا بإله واحد هو أهورامزدا وهو إله سام لا قياس لعظمته وقدرته وروحانيته. وتوجد معه قوى مجردة هي أشكال منه أو مبادئ صادرة عنه، لكنها في منزلة أقل من منزلته.

1- تحدث عنه الطبري وابن الأثير والمسعودي وغيرهم. وعرض الشهرستاني في الملل والنحل أفكار زرادشت بوضوح، (تحقيق عبد الرحمن خليفة ج 2، ص 62).

2- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 94-95-96.

ومنذ أن خلق هذا العالم يتناحر فيه روحان يمثل أحدهما الخير ويمثل الآخر الشر، ولا يعرف هذا النزاع بينهما أية مهادنة، وهو يشمل كل شيء في الوجود. أما دور الإنسان في هذا النزاع فهو أن يحارب عناصر الشر في ذاته وخارجها، وعندها ينال السعادة بعد الدينونة الأخيرة.

فللعمل الإنساني قاعدة أخلاقية مبنية على حتمية انتصار الخير والعدل. إن التقي قديس وهو يزيد العدالة بالعقل والحكمة والعمل والضمير. هكذا يمكن للمرء أن يرى إلى أية قمة أوصل هذا المصلح الغامض أفكاره وتعاليمه.

أما الديانة الرسمية للدولة فهي الزرادشتية. وقد اعتنق دارا الدين الجديد وتحمس له ونصب نفسه نصيراً ومؤيداً له طوال حياته، إذ رأى فيه ديناً ملهماً لشعبه ودعامة لحكومته.

إن السياسة العالمية للإمبراطورية الفارسية جعلت الملوك الفرس يعترفون بالآلهة الأخرى للشعوب الداخلة في المملكة المترامية الأطراف. لكن أهورامزدا احتفظ بموقع الإله الأعظم، وهو الإله الملكي بالدرجة الأولى. ويمثل في النقوش برسم قرص الشمس المجنح تخرج منه صورة نصفية لشخص له لحية ويكلل رأسه تاج، ويذكِّر هذا الشكل برمز الإله آشور المجنح. وتطلق على أهورامزدا صفات توضح ماهيته، فهو النور السماوي، خالق العالم بما فيه الأرض والسماء، الرب الحكيم، ناظم السعادة والعدالة، الآمر بالحق وحب الحقيقة وبغض الكذب. وعلى الرغم من المستوى العالي من الروحانية المجردة، فقد اهتم الملوك بالطقوس المادية، ومنها تقديم الذبائح والأضاحي وإشعال النار الدائمة[1].

على أنه بقيت في عقائد عامة الناس بقايا تقاليد قديمة تتصل بتصورات موروثة للعالم الآخر وديا جيره وإشراكه وشياطينه. ويسيِّر هذا العالم الخفي أهريمان. إن الديانة تأمر الإنسان بمجاهدة نفسه للانتصار على أسباب الشر وللوصول إلى فردوس حافل بالأفراح والسعادة واللذة المادية. فالمعتقدات السائدة في المجتمع هي أكثر تعقيداً، وتتصل بعالم الغيب وما بعد الموت وما يحيط به من أسرار.

وقد تكونت المؤسسات الكهنوتية لتنظيم العبادات والطقوس وعلى رأسها كهنة يدعى الواحد منهم بـ (ماج) = (مجوس)، كانوا يشرفون على إيقاد النار المقدسة ويرتلون التراتيل ويقربون القرابين ويقدمون التقدمات ويتولون العناية بالذبائح والأضاحي، ويترأسون طقوس العناية بالموتى ونقلهم إلى الأماكن البعيدة لتلقى في الصحراء لكي تلتهما الطيور الجارحة وتفترسها الكواسر؛ فهم لا يحرقون الجثث ولا يدفنوها لكي لا يدنسوا العناصر الكونية الرئيسية وهي: التراب والهواء والماء والنار[2].

1- المرجع السابق، ص 93-94.

2- المرجع السابق، ص 93-94.

إن الفكـرة المركزيــة فــي الزرادشـتية هــي التأكيـد علــى إلــه واحـد اسـمه أهورامزدا. ولهذا الاسم دلالته لأن (أهورا) تعني الرب. وهو الاسم الذي كان يطلق على الربوبية من قبل. أما (مزدا) فهي صفته، وتعني الحكيم، العليم، العاقل. وهذا ما يعكس الجانب الفكري في تعاليم زرادشت. إنه لأمر ملفت للنظر ظهور مفكر في الشرق في أواسط الألف الأول ق.م، في الوقت الذي كانت تختمر فيه أفكار الفلاسـفة اليونـانيين علــى السـاحل الآيـوني، وهـذا مـن المؤشـرات الهامـة علــى التطورات الفكرية التي تبلورت فيما بعد في العالم الهيليني في العصر الكلاسيكي على أيدي معلمي الفكر في أثينا.

إن إلحاق صفات تعادل قيماً أو أقانيم على اسم أهورامزدا يوضح بجلاء مدى تفوق العنصر الفكري في المفاهيم الزرادشتية. فأهورامزدا هو العدالة والفكر السليم، والإخلاص، والكمال والخلود، وهي كلها صفات للإله ليست مستقلة عنه لكنها مظهر منه وهو خالقها. وفيما يلي تعريب لأحد أهم التراتيل، يحدد فيه زرادشت عظمة عمل أهورامزدا: «إنني أسألك، أي أهورامزدا، أي مولاي، أجبني!

من كان أول أب للعدالة عند الخليقة؟
من حدد مسار الشمس والنجوم في أفلاكها؟
من سواك رفع القمر إلى الأوج، ومن هبط به إلى المحاق؟
هذا ما أريد أن أعرفه، أيها الحكيم، وأشياء أخرى.
أسألك يا رب أجبني!
إني أسألك، أي أهورامزدا، أي مولاي، أجبني!
من ثبت الأرض والسماء فوقها بسحبها حتى لا تنهار؟
من فجر الأمواه وأنبت النبات؟
من أسرج للريح وللغيوم خيولها؟
من هو، أيها الحكيم، يا خالق الفكر الطيب!
إني أسألك، يا مولاي، أجبني!
من مبدع النور والظلمات؟
من خالق النوم واليقظة؟
من فالق الصباح وموقت الظهيرة والمساء؟
لكي يحدد لكل ذي عقل من الناس ما يطلب منه.
أسألك يا مولاي أجبني!
من صاغ الإخلاص المكرس في الملك؟
من جعل الابن يحترم أباه؟
إنني أجاهد نفسي لكي أعرفك أيها الحكيم!

كالروح القدس خالق كل شيء»[1].

أهم خصائص دين زرادشت هي التثنية، أي الاعتقاد بوجود قوتين تسيطران على هذا العالم: قوة الخير وقوة الشر، أو إله الخير والشيطان.

فالعالم منقسم إلى قسمين كبيرين بينهما هوة واسعة. وعلى جانبي هذه الهوة تقوم مملكة النور ومملكة الظلام، أي عالم الخير وعالم الشر. وهناك في ذلك النور اللانهائي يقيم الله، وفي ذلك الظلام اللانهائي يقيم الشيطان.

وعالم الدنيا من خلق الله، ولكن الشيطان يفسد هذا الخلق ويتلفه. ولولا هذا لكان عالمنا الدنيوي عالماً خيراً، لأنه من خلق إله الخير (أهورامزدا). إن هذا العالم الدنيوي هو نقطة الاحتكاك بين الخير والشر ومسرح الحرب بينهما. ومحور هذا العالم هو الإنسان.

ورغم ما يؤكده الدين الزرادشتي من الاعتقاد بسلطة الشيطان في هذا العالم، وقدرته على أن يفسد ما يخلق الله من خير، فهو يؤمن بأن الشيطان في النهاية سينهزم، وسيختفي إلى الأبد، وبذلك تسود مملكة النور، وهنا تقوم القيامة ويبعث الناس، ويكافأ الخيّر، ويعاقب المذنب[2].

يرتدي الكهنة الزرادشتيون أردية بيضاء، ويضعون عمامة على الرأس، وقناعاً على الفم أثناء تأديتهم لبعض الطقوس، ليتجنبوا تلويث النار المقدسة بأنفاسهم. وهناك صلوات بعدد أقسام اليوم الخمسة، حيث فرض على أتباع الزرادشتية أن يؤدوا خمس صلوات في اليوم، هي صلاة الصبح «كان هاون»، وصلاة الظهر «كاه إرقون»، وصلاة العصر «كاه إيزن»، وصلاة الليل «كاه عيوه سرتيرد»، وصلاة الفجر «كاه إشهن»، وهناك صلوات خاصة أخرى...

وهناك احتفالات لجميع المناسبات الكبرى في الحياة: في الميلاد والبلوغ والزواج وإنجاب الأبناء والموت.

ولا بد للمرء أن يمر بطقوس التطهر قبل أن يقوم بأي عمل رئيس من أعمال العبادة. وكثيراً ما يتم الاعتراف بالخطايا التي ارتكبت عن طريق التفكير أو الكلام أو العمل. وهناك نوعان من الطقوس المركزية: طقوس النار، وطقوس القربان (الهوما HAOMA). والنار رمز أهورامزدا وابنه، ولا بد أن تحفظ بعيداً عن أي تلوث، فلا ينبغي أن تراها الشمس ولا عيون غير المؤمنين، ولا بد أن تحفظ في معبد النار. وهناك عدد من النيران المقدسة يسهر على خدمتها الكهنة بحب وبشكل مستمر، والنار الرئيسة هي بهرام BAHRAM أو ملك النيران الذي يتوج ويوضع

1- قام بتعريب هذا النص الدكتور محمد حرب فرزات عن موسكاتي: S. MOSCATI. LORIENT AV, LES GRECS, 317, GATHAS, YASNA 44, 3-7.

2- د. محد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 198-199.

على العرش، ولا يكتفي بتنصيبه فحسب. وعندما يزور البارسيون PARSIS [1] النار، يضعون على جباهم علامة بالرماد رمزاً للتواضع، والمساواة، وكمصدر للقوة. والهوما HAOMA نبات بدون أوراق، ثمرة يشبه عنب الثعلب، وهو سامّ. وهو عند أتباع هذه الديانة الإله «هوما» على الأرض. وفي طقوس الهوما يسحق هذا الإله - النبات، ويستخرج من العصير شراب الخلود. وفي هذه القرابين الخالية من الدماء، يكون القربان هو الإله والكاهن والضحية في آن معاً، ويقوم المؤمن بالتهام هذا القربان الإلهي، مستبقاً بذلك القربان الذي سيقام في نهاية العالم، ويجعل جميع البشر خالدين[2].

الزرادشتية بعد زرادشت:

بعد وفاة زرادشت استمر الدين الزرادشتي لزمن طويل، وقد أصابته ضربة قوية حين غزا الإسكندر إيران عام 330ق.م. فيقال إن نسخة الأفستا التي كانت في الخزائن الملكية قد أُحرقت. وتلا ذلك عصر مظلم بالنسبة إلى دين زرادشت هو عصر السلوقيين والبارثيين، الذين حكموا إيران حتى عام 226م، أي نحو خمسة قرون. وجاءت بعد ذلك الدولة الساسانية التي أسسها أزدشير بن بابل، فأحيت الزرادشتية، وأعادت إليها قوتها، وجعلتها دين الدولة الرسمي. ففي عصر هذه الدولة جمعت نصوص الأفستا من جديد، وسادت الزرادشتية من جديد نحو أربعة قرون. ولكن الفتح العربي الذي وقع في عام 651م كاد يقضي عليها، فأسلمت الكثرة الغالبة من سكان إيران، وفرَّ بعض أتباع الدين الزرادشتي إلى الهند؛ حيث بقوا على دينهم، وسموا هناك بالبارسيين نسبة إلى وطنهم الأصلي فارس[3].

1- البارسيون هم أتباع الديانة الزرادشتية أو المجوس كما أطلق عليهم اليونانيون عندما فتحو فارس.

2- جفري بارندز: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي ط 2، القاهرة، 1996، ص 143-144.

3- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 220.